فاعلية العلاقات الدلالية في انسجام القصائد السبع العلويات لابن أبي الحديد المعتزلي (ت٦٥٦هـ)

(القصيدة السينية اختياراً)

رؤيا كمالي

طالبة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة أصفهان

سمية حسنعليان (الكاتبة المسؤولة)

الأستاذة المشاركة الدكتورة في قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة أصفهان

The Effectiveness of Semantic Relationships in the Harmony of the Seven Alawiyat Poems by Ibn Abi Al-Hadid Al-Mu'tazili (d. 656 AH)

(The Sinaiya poem)

Ru'yaa Kamali

PhD student in the Department of Arabic Language and Literature, Isfahan University

*Sumaya Hassanalyan (responsible writer)

Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Isfahan University

ملخص البحث

تعدّ العلاقات الدلالية من أبرز وجوه الانسجام الدلالي التي تعمل على الربط بين قضايا النص على مستويات الوحدات النصية الصغرى والكبرى وتسبّب استمرارية الدلالة والامتداد النصي بتوليد المعاني المترابطة وتناسلها طوال الوحدات النصية و كذلك بتنظيم منطقي للأحداث، وبهذه الفاعلية تعطي النصّ دينامية تسهّل عملية استقبال الرسالة. هذا من جهة ومن جهة أخرى تعدّ «قصائد السبع العلويات» لابن أبي الحديد مجالاً خصباً لمعالجة الانسجام القائم على العلاقات الدلالية، بما تملك من وحدة الموضوع والطاقات الفنية وباعتبار أنّها كنز ثمين من خزانة الأدب العباسي. نظراً لهذه الأهميّة لقد اخترنا القصيدة السينية، وهي القصيدة الرابعة من هذه المجموعة، التي أنشدها الشاعر بأسلوب متميز يبدأ بمقدمة مصبوغة بصبغة العرفان المتجلي في وعاء المفاهيم الصوفية ليصل إلى مدح الإمام علي عليه السلام. قد اقتضى هذا البحث دراسة دور أهمّ العلاقات الدلالية وأبرزها في انسجام القصيدة من ثلاثة زوايا وهي العلاقات المنطقية، والتفسيرية والتقابلية، بفروعها المتنوعة وتبيان فاعلية هذه العناصر في تقوية الحبك وحسن التلقي على مستوى الوحدات النصية الواحدة (الصغرى) والكبرى معتمداً على المنهج الوصفي-التحليلي بتقديم أبيات مختارة منها. ظهر من خلال دراستنا أنّ سينية ابن أبي الحديد بنيت على شبكة من المفاهيم المنتظمة في نسق من العلاقات الدلالية المتجاورة والمبثوثة في الوحدات النصية الصغرى والكبرى؛ وأنّ هذه العلاقات تنظّم القضايا كقطع من اللغز لاستيعاب الفكرة الأساسية للنص وتكوين النص كنسيج واحد وإنتاجه المؤثّر. ومن وظائف هذه العلاقات الأخرى تنمية الدلالة في النص وإيثار النفوس بما تؤكّد عليه من المفاهيم الوجدانية؛ فإنّ الحبّ والمعرفة تفوح في فضاء النص من مطلع القصيدة إلى نهايتها.

الكلمات الدليلية: العلاقات الدلالية؛ الانسجام؛ التماسك النصي؛ ابن أبي الحديد؛ القصائد السبع العلويات؛ الشعر الصوفي.

Abstract

The semantic relations are considered the most prominent aspect of coherence since they link textual predicates at the level of small and large textual units. It also leads to semantic continuity and development of the text by producing related meanings and logical arrangement of events throughout those textual units, which gives the text a kind of dynamism that facilitates understanding the messages.

The "Alawiat" poems of Ibn Abi Al-Hadid is considered a rich source for studying coherence regarding semantic relations due to the thematic integrity and being a valuable work in Abbasid literature. Due to this importance, we have chosen the Sinaiya poem, which is the fourth poem from this collection. It is noteworth noting that the "Siniyah" composed differently, was chosen as the fourth ode of the Alawiat, which begins with a mystical introduction and ends with the praise of Imam Ali; the main subject of the poem. Therefore, this study examines the role of the most important semantic relations in the coherence of the text from three angles of logical, interpretive and confrontational relationships including multiple subsets. It also explains the effect of these elements in improving the coherence, and in the perception of the text, based on descriptive-analytical method and presenting selected verses. During the studies, it was concluded that the "Siniyah" ode is based on a network of regular concepts in a pattern of adjacent and scattered semantic relations in small and large textual units. These semantic relationships also organize events and like pieces of a puzzle to transmit the text meaning and to form an integrated text. Furthermore it promotes the meaning in the text and influences the readers' emotions by proposing emotional concepts.

Keywords: Semantic Relations, Coherence, Ibn abi al-Hadid, Alawiat sab odes, Mystic Poetry

١- علم اللغة النصي وسينية ابن أبي الحديد- مقاربات تأصيلية

انطلق علم اللغة النصي في رؤيته وأسلوبه التحليلي من حدودٍ وضعتها الدراسات اللسانية السابقة في تحليل الجمل، وتجاوز تلك الحدود التحليلية بلحاظ أنّ النص الوحدة الأساسية القابلة للتحليل؛ فانفتحت بظهور علم اللغة النصي آفاق جديدة لفتت الأنظار نحو تحليل النص. يهتمّ علم اللغة النصي بدراسة النصوص «في ضوء عناصر الاتصال وهو لا يدرس أبنية النص فقط بل يدرس صفات التوظيف الاتصالي»[١]، لأنّ النص بنية معقّدة ذات أبعاد أفقية ورأسية تحتاج إلى رؤية متكاملة من أنواع العلوم اللغوية والاتجاهات اللسانية؛ إذن يعدّ التماسك النصي من أهمّ مفاهيم علم اللغة النصي إذ يميّز به النص عن اللا نص وهو مبني على عمودي الاتساق أو الترابط الشكلي في محور النص الأفقي والانسجام أو الترابط المفهومي في محور النص الرأسي. أكّد دي بوجراند هذين البعدين كأهمّ المعايير لتشكيل النص، ويعرّفهما سمتين جوهريتين للنص تعطيانه الهوية؛ هكذا فإنّ النص ثمرة الاتساق (Cohesion) والانسجام (Coherence) معاً.

أطلق د.سعد مصلوح على الانسجام- بوصفه المجال المفهومي للتماسك النصي- مصطلح الحبك وعبّر عنه بـ«الاستمرارية الدلالية التي تتجلي في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم»[٢]؛ هكذا فإنّ الحبك يحقّق الترابط بين مفاهيم النص ويبيّن كيفية نشر الدلالة في خلاياه، وكذلك يسوق المتلقي نحو الإبداع والمشاركة في خلق النص عبر التأويل وتفكيك الرموز. بحث النصيون عن سير عملية الترابط المفهومي وحاولوا وضع معايير للانسجام الدلالي؛ منهم دي بوجراند

الذي كان يعتقد بأنّ الانسجام يشتمل على العناصر المنطقية ومعلومات عن تنظيم الأحداث والموضوعات؛ وعلى هذه الرؤية نفهم بوضوح أنّ العلاقات الدلالية بأنواعها المتعدّدة تقوم بتنظيم منطقي للأحداث في داخل النص وفق القواعد المعرفية والمنطقية.

أمّا "القصائد السبع العلويات" لابن أبي الحديد، بوصفها أشهر تراث الأدب القديم وأروعها في ميدان أدب الالتزام، أُنشدت في مدح أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام وبيان فضائله. كان ابن أبي الحديد (٥٨٦-٦٥٥هـ) كاتباً شاعراً بديوان الخليفة وهو من جهابذة العلماء في العصر العباسي الثاني الذي يلمع كنجمة في سماء تاريخ الحضارة الإسلامية. كذلك كان فقيهاً أصولياً ومتكلماً معتزلياً كما كان أديباً خبيراً بمحاسن الكلام وكان وراء هذا شاعراً عذب المورد[٣]؛ ومن أشهر تصانيفه "شرح نهج البلاغة" في عشرين مجلداً، ومن شعره مجموعة "القصائد السبع العلويات". تعدّ هذه المجموعة خير مادة لتطبيق النظريات النصية وجوانب التماسك الدلالي؛ إذ تتضمّن استراتيجيات دلالية تقوم بإحكام النصوص وتقوية حبكها على مستوياتها الداخلية والخارجية؛ ومن أنجح هذه القصائد باعتبار فاعلية العلاقات الدلالية، القصيدة السينية أو القصيدة الرابعة من مجموعة العلويات التي تلمع كواسطة العقد بأسلوبها الفريد في تصوير المعاني وإظهار الرؤية الشاعرة الجديدة المتبلورة في انتقاء الرموز العرفانية الصوفية.

أهداف البحث:

استناداً على أهميّة الانسجام الدلالي في تحليل تماسك النصوص، وأهمية القصيدة السينية التراثية في مجموعة "القصائد السبع العلويات"، يستهدف هذا البحث الكشف عن أهمّ العلاقات الدلالية الساهمة في انسجام

هذه القصيدة معتمداً على المنهج الوصفي-التحليلي الذي يلائم طبيعة الدراسات النصية.

أسئلة البحث:

تجاه بلوغ الغايات المذكورة، يكون البحث بصدد الإجابة عن الأسئلة التالية:

١- ما هي أبرز علاقات دلالية تعمل على الربط بين قضايا سينية ابن أبي الحديد وتقوية حبكها النصي؟

٢- كيف أسهمت العلاقات الدلالية في خلق مضامين الوحدات النصية الصغرى وتنظيم أحداثها في مسار الدلالة الجامعة، وفي ربط لوحات القصيدة على مستوى الوحدات الكبرى لإنجاز الخطاب الشعري؟

مرجعيّة البحث:

رغم اهتمام الكثيرين ببحوث عديدة في ميدان التماسك النصي، لكنّ الانسجام بوصفه أحد جوانب هذا الاتجاه اللساني، لم يهتم به الباحثون على حد الاتساق. أمّا في مجال العلاقات الدلالية فقد تناول الدراسون كيفية توظيف هذه العناصر في إنتاج النصوص من جوانب متعدّدة؛ يمكن الإشارة إلى أهمّها:

- مقالة «التماسك السببي في النص الروائي العربي المعاصر؛ قصّة قاع المدينة ليوسف إدريس نموذجاً» (٢٠٢٠م)، التي تهدف إلى دراسة وجوه توظيف العلاقة السببية بوصفها عنصرًا مهمًا في السردية، وأحد أبعاد التماسك الدلالي في قصة قاع المدينة.

- مقالة «الحبك في شعر ابن مجبر الأندلسي» (٢٠١٩م)، التي تتناول ملامح الحبك النصي في شعر ابن مجبر الأندلسي بتحليل شواهد من ديوانه، ويسعى إلى الكشف عن خصوصية هذا الديوان معتمداً على منهجية فان دايك.

- مقالة «وظيفة العلاقات الدلالية في انسجام الخطاب الشعري؛

لامية العرب للشنفرى أنموذجاً» (٢٠١٨م)، التي تسعى إلى استغلال المفاهيم والإجراءات التي اعتمدها الغربيون في مجال لسانيات النص لمقاربة خطاب شعري عربي قديم.

أمّا القصائد السبع العلويات فإنّها ليست من النصوص الأدبية التي كتب عنها أوّل مرّة؛ فقد كتبت فيها أبحاثٌ عديدةٌ في ساحاتٍ مختلفةٍ كالشرح وتحليل فنونها الأدبية، وساحة الأسلوبية. أمّا في ساحة علم اللغة النصي فإنّنا لم نقف على بحثٍ لساني مصنّف في تحليل أثر العلاقات الدلالية في تحقيق انسجام القصائد السبع العلويات بوصفها أثراً غالياً يستحق الدراسة لثرائها اللغوي.

٢- العلاقات الدلالية ومكانتها في ساحة الانسجام

يرتبط معنى الانسجام لغةً بالانصباب كما قيل: «سجمت العين الدمع، والسحابة الماء: وهو قطران الدمع وسيلانه، قليلاً كان أو كثيراً وانسجم الماء والدمع أي انصبّ»[٤] وهذه الدلالة تلائم مفهومه التداولي في ميدان اللسانيات ملائمةً تامّةً إذ توحي بمعنى التتابع وعدم الانقطاع كما أكّد السيوطي على هذا المعنى بأنّ الانسجام «هو أن يكون الكلام لخلوه من العقادة متحدَّراً كتحدّر الماء المنسجم»[٥]. أمّا علم اللغة النصي فيعرّف الانسجام- باعتباره خاصية دلالية جوهرية للنص- بأنّه امتداد دلالي يؤثّر على نضج المستوى الشكلي للنص وتنظيم الأحداث في خيطه؛ ويتحقّق هذا الاستمرار الدلالي داخل فضاء النص وخارجه. يحتوي مجال الانسجام على استراتيجيات دلالية يعتمد عليها المرسل واعياً لإحكام النص وبناء موضوعاته؛ كذلك يقتضي هذا المجال «صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفية التي تنظّم النص وتولده. بمعنى تجاوز رصد المتحقق

فعلاً (أو غير المتحقق) أي الاتساق إلى الكامن (الانسجام)»[٦]، إذن يكون الانسجام أعمق من مفهوم الاتساق لأنّ حسن السبك ثمرته وضوح المعنى.

أمّا النص الأدبي بوصفه استعمالاً خاصّاً للغة فيعدّ نظاماً من شبكة علاقات متداخلة (حقيقية ومجازية) يختارها المرسل واعياً ويوظّفها لتنظيم الأحداث وتفصيل الأوصاف في نسيج النصّ وبهذا التنظيم يقوم بتقوية الحبك. هكذا فإنّ دراسة الانسجام النصي يسوقنا نحو رصد مجموعة من العلاقات الدلالية التي تشدّ أطراف النص وتجمع عناصره المتباعدة؛ ودافع الكشف عن هذه الروابط المفهومية بين قضايا النصّ، يقود المتلقي شطر الخوض في أعماقه من خلال عملية تأويل المفاهيم وتفسيرها في نسيجه واحدةً تلو أخرى. تؤدّي العلاقات الدلالية وظيفتها الربطية من خلال تفاعلها داخل النصّ وتسبّب الامتداد النصي بتوليد المعاني المترابطة وتناسلها طوال الوحدات النصية، وبهذه الفاعلية تعطي النصّ دينامية تسهّل عملية استقبال الرسالة من جانب المتلقي.

٣- تجليات الانسجام العلاقي في سينية ابن أبي الحديد

قبل الدخول في صلب البحث يجب علينا التعرّف على هيكلية نصّ القصيدة السينية. تختلف هذه القصيدة عن القصائد الأخرى في مجموعة القصائد السبع العلويات في أسلوبها. هذا ابن أبي الحديد في أكثر قصائده حذو الشعراء الأقدمين باتخاذ أسلوبهم التقليدي في المقدمات الغزلية والطللية، والصور الكلاسيكية ولكنّ ما يجذب النظر في هذه القصيدة، افتتاحها المتميّز. أنشد ابن أبي الحديد مقدمة هذه القصيدة على نمط الأدب الصوفي ببيان رمزي إشاري وهذا

الانتقاء الخاصّ يعود إلى بيئته الأدبية، إذ يعدّ العصر العباسي الثاني عصر ازدهار الشعر الصوفي تبعاً لازدهار النزعات الفلسفية ورقي العقل. يبدو واضحاً أنّه جعل الخمرة في نطاق العرفان بإعطائها معنى رمزياً عرفانياً وهو معرفة الله (عزّ وجلّ)، فلجأ إلى هذه الوجوه الدلالية معتمداً على الأسلوب العرفاني لابن الفارض (٥٧٦-٦٣٢هـ) ومواكباً له فيها وإن كان معاصراً له.

بدأ ابن أبي الحديد مقدمة القصيدة بافتتاح مؤثّر وهو فكّ دنّ الخمرة وبزوغ الشمس أي إضاءة نور المعرفة وانتشاره، ومتابعاً لهذا النبأ يأمر بعفر الخدود في التراب واستسلام النفوس للحبّ الإلهي استسلاماً تامّاً. إنّ ما يساعدنا في فهم دلالة الخمرة المجازية، هو استعمال الشاعر ألفاظاً خاصّاً يدلّ على الفضاء العرفاني كـ "روح القدس"، وكالحديث عن الديانات الإلهية؛ كذلك يرشدنا سياق القصيدة العام أو الموضوع الرئيس للنص (مدح أمير المؤمنين) نحو فهم هذه المقدّمة المبنية على منحى الصوفية التي «تهدف إلى تكوين إنسان كامل بطرق خاصّة في سياق معيّن»[٧]. عندما وقف الشاعر على قمة المعرفة نشوان من الحبّ الإلهي ومسروراً به، ينظر إلى مرحلة شبابه ويجد عصارتها ذنوباً؛ هكذا بنيت الوحدة الثانية من السينية، على أسلوب التشبيب وهو من الخصائص المتميّزة لهذه القصيدة. يصوّر لنا ابن أبي الحديد في هذه الوحدة سرعة مضي هذه المرحلة والتمتع بكلّ اللذات في لوحات فنية مؤثّرة ليثير في المتلقي ذلك الإدراك الشعوري بأنّ عصارة هذه الغفلة ليست إلّا ثقل الذنوب، ثمّ يقترح له طريقاً معرفياً للتخلص من هذا الثقل وهو الاستمساك بمدح من نعرفه كلّنا بكمال شخصيته وهو أمير

المؤمنين الإمام علي عليه السلام الذي توصّلنا معرفته (ع) إلى معرفة الله (عزّ وجلّ). هكذا نحن في الوحدة الثالثة، وهي الوحدة الرئيسة لهذه القصيدة، نلاحظ مبادرة ابن أبي الحديد إلى مدح الإمام علي (ع) مؤكّداً على شيمة الفروسية من خلال تصوير جهاده في وقعات الجمل، صفين، والنهروان؛ وبتقديم هذه الشواهد من تاريخ الإسلام وحياة الإمام (ع) السياسية ينفخ في تأثير كلامه الإقناعي. تأسيساً على هذا النسيج المضموني، نستطيع تصنيف أبرز العلاقات المقبولة في ساحة علم اللغة النصي التي اعتمد عليها ابن أبي الحديد في مسار تحقيق انسجام السينية، في ثلاثة أقسام وهي: العلاقات المنطقية، والعلاقات التفسيرية، والعلاقات التقابلية التي قد أشار إليها البلاغيون القدماء كـ(حازم القرطاجني ت ٦٨٤هـ) وأكّد عليها علماء اللسانيات النصية كفان دايك وأيزنبرج في تصانيفهم؛ وقد اختار ابن أبي الحديد هذه العلاقات للتعبير عن فحوى أفكاره وبناء ترتيب تجاربه الشعورية والأحداث التاريخية عليها.

٣-١- فاعلية العلاقات المنطقية في حبك السينية

يعرف النصّ بأنّه كمية منتظمة من القضايا، يغلب عليه سمة المنطقية بوصفها الخصيصة الوجوديّة للنصّ على اعتبار أنّ النصوص هي مجموعة من أفكار تربط بينها الروابط المنطقية؛ وهذه السمة مفهوم عامّ تندرج تحته العلاقات التي تعطي النصّ معقولية كالعلاقة السببية والتعليلية؛ وكعلاقة قياس التمثيل التي تمثّل محوراً مهمّاً من الترابط الدلالي مبنياً على القياس المنطقي؛ وأخيراً علاقة التتابع التي تسبّب تنظيم منطقي لأحداث النص على وفق الترتيب الزمني والحركي والقولي.

٣-١-١- العلاقة السببية/ التعليلية

إنّ العلاقة السببية/ التعليلية في لسانيات النص -ولسنا معنيّين هنا بتتبع الخلاف في دلالتها، بل نقوم بتبيين وظيفة هذه العلاقة المنطقية بنوعيها- هي التي تسبّب استمرار الدلالة على المستوى بنية النص التحتية، خلال تحقيق الربط المنطقي بين القضيتين؛ فالقضية الأولى تتيح الظروف لحدوث القضية الثانية أو تكون حكماً عقلياً على حدوث النتيجة. تعدّ هاتان القضيتان جملاً مكتملةً في الدلالة ولكنهما تتحوّلان في النهاية إلى قضية واحدة لأنّ القضية وعلّتها شيء واحد.

يؤدّي الربط السببي أثراً ملحوظاً في إلقاء مضمون القصيدة السينية بأسلوبه المنفرد في مجموعة العلويات، إذ يتجلي المضمون المحوري (المديح) في ثوب شعري جديد. تبيّن لنا القراءة الإحصائية في هذا النص أنّ الشاعر قد اعتمد على العلاقة السببية في (١٤) مواقعًا خلال الوحدات النصية الصغرى (اشتملت الوحدة الأولى على ٧ علاقات، والثانية على ٣ علاقات والثالثة على ٤ علاقات)؛ وما يجلب نظرنا خلال متابعة حركة الدلالة طوال الوحدات النصية الثلاث للبحث عن وظيفة العلاقات السببية، هو كثرة استعمال الربط السببي في المقدمة الخمرية (تبلغ نسبته المئوية ٥٠٪ من مساحة كلّ النص). من المألوف أنّ الشاعر في الغزل كثيراً ما يعتمد على أوصافٍ تثير العواطف وتلطف الآذان فلا يحتاج إلى التعليل في هذا السياق؛ من هنا نستطيع القول بأنّ الخمرة والمفاهيم المتعلقة بها في هذه المقدمة لم تستخدم إلّا رموزاً عرفانية للمعرفة الإلهية وإنّ اعتماد الشاعر على التعليل والإقناع يجعل هذه المقدمة من النماذج الناجحة للأدب الصوفي. من الملاحظ أنّ حبك الوحدة الأولى مبني على سبعة أعمدة سببية

تقوّي الاتصال بين المفاهيم وتسهم في تجسيد موقف إنساني عميق للشاعر يشمل المسرّة النابعة من الحبّ الإلهي ومعرفته. إنّ طبيعة المقدمة الحوارية (تخاطب المتلقين) تقتضي كثرة استعمال الأفعال الأمرية الدالّة على تعامل المرسل مع المخاطب بوصفه الخبير بهذه المعرفة ومذاقها العذب. نسجت المفاهيم المطروحة في هذه المقدمة من مادة الحوادث التي تسبّب حكم المرسل معتمداً عليها؛ هكذا فإنّ الإخبار بحدوث فيضان المعرفة الإلهية وانتشارها يسبّب أمر المرسل المخاطبَ باغتنام هذه الفرصة وتشجيعه على النشوة من لذّتها العميقة:

فُكَّ الحَبِيسُ فَعَفِّرُوا
فِي التُّرْبِ تَعفِيرَ الحُبُس
الصَّمتَ إجلالاً لَمِو
ضِعِها القَدِيمِ بَلِ الخُرُس
غَلَطَ المَجُوسُ هِيَ الَّتِي
عَبَدَ المُزَمزِمُ إذ دَرَس[٨]

الحبيس في البيت الأوّل بمعنى الخمرة وحادثة كسر طين دنّها وانتشارها، تسبّب أمر المخاطبين بعفر الخدود في التراب تعظيماً لها كتعفير الزاهدين من النصارى الذين يحبسون أنفسهم للعبادة، كما أنّها تلتزم أمرهم بالصمت لقدمة عهدها بوصفه علامة التعظيم. تتجلّي العلاقة السببية في هذين البيتين بشكل صريح ضمن اختيار الفاء التي تدلّ على السببية العامّة بين البنيتين المختلفتين الخبرية والإنشائية إذ تؤدّي الجملة الخبرية إلى حكم إنشائي؛ كذلك تتجلّي هذه العلاقة مصرّحةً خلال اختيار مفعول له (إجلالاً) في البيت الثاني. أمّا هذا الربط في البيت الثالث فيسهم في تكوين الصورة الفنية إسهاماً بارزاً بصورة غير مباشرة خلال تشبيه الخمرة بالنار لحمرتها وتشعشعها بحيث غلّط هذا التشبيهُ المجوسَ بأن يحسبوها النار العنصرية التي تعبد على دعواهم.

أمّا بالنسبة إلى أثر العلاقة السببية في انسجام الوحدة الثانية أي مقطع التشبيب، فجدير بنا الإشارة إلى موقع استعمالها المهم؛ فقد اعتمد الشاعر على هذا الأسلوب الربطي في نهاية هذه الوحدة تمهيداً للفضاء المناسب لبداية المضمون الرئيس في الوحدة الثالثة وهذا ما نعرفه باسم حسن التخلص:

فَإذا عُصَارَةُ ذاكَ حُو
بُّ فِي المَغَبَّةِ أو طَفَس
فَافرِغ إلَى مَدحِ الوَصِيـ
ـيِ فَفِيهِ تَطهِيرُ النَّجَس[٩]

أبدع الشاعر في التشبيب برسم صورة فنية مؤثّرة خلال تشبيه اللذائذ بالفريسة ونفسه بالأسد الذي ظفر بها وأخذ ما عليها من اللحم فكأنّه تمتّع بكامل ما في أيّام الشباب من اللذات، كما هو صرم حبل الرغبات كأنّه قضى في الشباب جميع آماله؛ ثمّ يصبّ نتيجة هاتين الصورتين في وعاء البيت الثالث باستعارة لفظة "عصارة" لما صدر عن الشهوات في الشباب فإنّ قضاء المآرب في هذه المرحلة يسبّب تلوّث الشاعر بالذنوب ويجري الشاعر هذه العلاقة باتخاذ فاء العاطفة السببية حلقة الاتصال بين المفهومين ليصيّرهما مفهوماً واحداً. والبيت الأخير هو الموضع الهامّ الذي اختار فيه الشاعر علاقة سببية ليحقّق حسن التخلص أي الخروج عن التشبيب (ذكر أيام الشباب) إلى الغرض الرئيس (المديح)، فبما أنّ ذِكر الوصي عليه السلام ومدحه يسبب تطهير القلوب من المعاصي والخبائث، فإنّه خير مدخل للانتقال إلى المدح؛ هكذا فقد اتخذ المرسل من الربط السببي وسيلة الاتصال الوثيق بينهما حيث لا يدرك القارئ هذا الانتقال بشكل محسوس.

أمّا في الوحدة الثالثة أي مقطع مدح الإمام عليه السلام، فإنّ اعتماد المرسل على العلاقات السببية يؤدّي إلى رسم

لوحة محسوسة ومؤثرة لجهاده (ع) في معركة صفين:

وَثَنَت أعِنَّتَها إلَى
حَربِ ابنِ حَربٍ فَارتَكَس
رَفَعَ المَصاحِفَ يَستَجِيـ
ـرُ مِنَ الحِمَامِ وَيَبتَئِس
خافَ الحُسَامَ العَندَمِيـ
ـي وَحَاذَرَ الرُّمحَ الوَرَس
فَانصاعَ ذا عَينٍ مُسَهـ
ـهَدَةٍ وَقَلبٍ مُختَلَس[10]

اعتمد ابن أبي الحديد على العلاقة السببية ثلاث مرّات بغية وصف القاسطين خاصّة زعيمهم معاوية بن أبي سفيان بوصفه أهمّ أعداء الإمام (ع). إنّ هذه العلاقة تربط بين المفاهيم الوصفية للإيحاء بخيبة معاوية الشديدة وإقناع المخاطب بهذه الخيبة، ولتصوير عجزٍ اضطرّه إلى رفع المصاحف بغية النجاة من تلك المهلكة. من الملاحظ أنّ المرسل قد صبّ اثنتين من هذه العلاقات في إطار "فاء" العاطفة السببية- الذي أشرنا إليه في الأبيات السابقة- لاتصال المعاني فجعل توجُّه خيول جيش الإمام (ع) شطر معاوية سبباً لارتكاسه ومثلها العلاقة السببية التي جعلت رفع المصاحف والخوف من حسام الإمام (ع) ورماحه سبباً لخوف معاوية وانصياعه. وبالنسبة للعلاقة غير المصرّحة فهي متجلية في تبيين سبب رفع المصاحف خلال جملة «يستجير من الحمام» الحالية.

أمّا الربط السببي بين الوحدات الكبرى فقد قام باتصال المقاطع المتتالية لتثبيت المضمون المحوري في ذهن المتلقي متابعاً حركة الدلالة من سياق إلى سياق آخر، كما أنّه أدّى أثراً ملحوظاً في رسم لوحات نابضة بالحياة تؤثّر في النفوس وتعريف الخمرة رمزاً عرفانياً يدلّ على السموّ الروحي المبني على التطهير والتفكر. فإذن تقتضي النشوة واللذة النابعتان من المعرفة الإلهية في الوحدة الأولى، الخوض

في ذكر أيام الشباب المحشودة باللذة والخلسة؛ وإنّ هذه اللذة لا تنتهي إلّا إلى التلوث بالآثام، وهذا التلوث يسوق الشاعر نحو ذكر خصال الإمام عليه السلام بوصفه القدوة الأعلى للحياة. نستطيع ملاحظة صورة هذه العلاقة على النحو الآتي:

٣-١-٢- علاقة التتابع

تعدّ هذه العلاقة من العلاقات الإضافية التي تعمل على الربط بين القضايا المتوالية في النص وتؤثّر على التنظيم المنطقي لأحداثه؛ فهي تتجلى في التتابع المنطقي للجمل على نحو يتحقّق بها الامتداد النصي. تؤدّي هذه العلاقة وظيفتها «بربط أجزاء النص المختلفة، فكلّ جملة ترتبط بما يليها من الجمل وتتعالق به بما يسهم في بناء نص محكم ومتماسك، وهذا الربط يكون من خلال الحكي الذي يخضع للترتيب الزمني المتوالي»[١١]. جدير بنا في دراسة هذه العلاقة، إشارة إلى تحويل مفهوم القضية إلى الحدث وهو مجموعة من الصور المشتملة على شخصيات وحوارات تقع في أزمنة وأمكنة معيّنة. بما أنّ الزمن عنصر دلالي هامّ في تكوين حبك القصيدة السينية، فإنّ الكشف عن علاقة التتابع الزمني وكيفية توظيفها في النص، يسهّل فهمه وبالطبع يبرز لنا درجة انسجامه. تتجلى هذه العلاقة في سرد القصيدة السينية منذ البداية حتّى النهاية ضمن الأحداث المتشابكة على خطية زمنية معيّنة؛ فنلاحظ أوّل تجلياتها في المقدمة حيث يقوم ابن أبي الحديد ببناء تجربته الشعورية بناءً تدريجياً من خلال الكلام

الصوفي. إنّ الزمن الذي يختاره الشاعر هنا، يؤثّر على كيفية تنظيم الأحداث الأخرى في الوحدات الثانية والثالثة. حدّد الشاعر أحداث المقدمة في زمن التكلّم أو لحظة الصفر ونفهم هذه الحقيقة من نسبة استعمال الأفعال إذ أنّ معظم هذه النسبة في المقدمة الصوفية، تعود إلى الزمن الحاضر. تبدأ الأحداث في هذه الوحدة من الأفعال الماضية البسيطة المتصلة بزمن الإنشاد- ويعود هذا الاتصال إلى الزمن النحوي أو زمنٍ يدلّ عليه السياق، إذ وردت هذه الأفعال في سياق الإخبار-، ثمّ تستمرّ بالأفعال الدالّة على الزمن الحاضر كالأمر والمضارع. نلاحظ تجليات علاقة التتابع الزمني خلال وصف الأحداث في لحظة الصفر باستعمال الأفعال الأمرية وكذلك باختيار أسلوب شرط يؤثر في كيفية تكوين الأحداث في الوحدة اللاحقة، فيعدّ هذا التنظيم الزمني خير تمهيد للانتقال إلى التشبيب. هكذا فمن أبرز وظائف علاقة التتابع في القصيدة السينية، هي تقوية انسجام الوحدة الثانية (التشبيب) حيث نلاحظ حدوث مفارقة زمنية خلال السرد الشعري:

قَصُرَت وَقَد رَكَضَ الصَّبا
حُ بِجُنحِها رَكضَ الفَرَسْ
فَإذا عُصارَةُ ذاكَ حُو
بٌ فِي المَغَبَّةِ أو طَفَسْ
فَافرِغ إلَى مَدحِ الوَصِيـ
ـيِ فَفِيهِ تَطهِيرُ النَّجَسْ[١٢]

من الواضح أنّ المرسل قد ارتد من الحاضر إلى الماضي بأسلوب دقيق من خلال مفارقة زمنية تتجلي في الاسترجاع وسرد التفاصيل الماضية؛ عندما «يخالف زمن السرد ترتيب أحداث القصة، سواء بتقديم حدث على آخر، أو استرجاع الحدث، أو استباق الحدث قبل وقوعه فتشكّل المفارقة الزمنية»[١٣]. هكذا فقد اكتفى الشاعر بذكر جزء من أيام شبابه التي

قد مضت، وقام بتعميم الحوب إلى هذه المرحلة ليجعل منها خير مدخل للتطرق إلى الموضوع الرئيس. تؤدي هذه العلاقة وظيفتها لتفهيم النص والزيادة في قدرة التحليل والاستنتاج للمتلقي ضمن توسيع الفضاء الزمني. ففي هذا المقطع نشعر بحركة الزمن خلال الانحراف عن لحظة الصفر في نظام القصيدة باستعمال الأفعال الماضية كـ"قصرت"، كما نشعر بالعودة إلى لحظة الصفر مرّة أخرى باستعمال فعل الأمر في البيت الأخير؛ ثمّ يستمرّ الشاعر كلامه في الوحدة الثالثة بوصفها البؤرة المعنوية الرئيسة التي تدور حولها دلالات المقاطع الأخرى:

فَافرِغ إِلَى مَدحِ الوَصِيـ
ـيِ فَفِيهِ تَطهِيرُ النَّجَسْ
رَبُّ السَّلاهِبِ وَالقَوا
ضِبِ وَالمَقانِبِ وَالخَمَسْ
وَالجامِحاتِ الشَّامِسا
تِ وَفَوقَها الصِّيدُ الشُّمُسْ
لِلشِّركِ مِنها مَأتَمٌ
وَالطَّيرُ مِنها فِي عُرُسْ
عَفَت رُسُومُ العَسكَرِ الـ
ـجَمَلِيِّ قِدماً فَاندَرَسْ
وَثَنَت أعِنَّتُها إِلَى
حَربِ ابنِ حَربٍ فَارتَكَسْ[١٤]

لجأ ابن أبي الحديد إلى الاسترجاع الزمني مرّةً أخرى بخروجه عن لحظة الصفر المتبلورة في فعل "افرغ " الأمري، وبخوضه في الماضي من خلال ذكر أوصاف أمير المؤمنين (ع) وفضائله؛ فقد أخذ المرسل يخبر بشخصية الإمام (ع) لتزويد المتلقي بمعلومات عن أبعادها السياسية، والفكرية، والنفسية فيساعده بإدراك هذه الأوصاف خاصّة فروسيته (ع) خلال تصوير واقعة قد حدثت في الماضي. إنّ ما يجذب انتباهنا في هذا المقطع، هو التدرج اللغوي نحو الاسترجاع الزمني التام بذكر الأحداث التاريخية، وهذا التدرج

يتجلي في استعمال الجمل الإسمية الوصفية الدالّة على الزمن الماضي مع التعلّق بالحاضر، ثمّ لجوء الشاعر إلى التصريح بالاسترجاع خلال اختيار أفعال "عفت"، "اندرس"، "ثنت" و"ارتكس" الماضية.

يبدو واضحاً أنّ الشاعر جعل من تاريخ الإسلام مجالاً خصباً لإبراز تعابيره الفنية ونيل التأثير المطلوب أي تبيين أبعاد شخصية الإمام (ع) للمتلقي، وإثبات فضائله لأنّ التاريخ مجموعة من الحقائق المقبولة؛ هكذا تعدّ علاقة التتابع من الطاقات المحركة لإنتاج هذا الخطاب الشعري بخلق خلفية حجاجية لتنظيم أحداثه. تبدأ الأحداث في هذا المقطع الشعري من واقعة الجمل، ثمّ تستمرّ على وفق الترتيب التاريخي المنطقي شطر واقعة صفين ووصف أحوال القاسطين وخوف معاوية؛ وفي هذا الامتداد المنطقي، ينتقل الشاعر إلى وصف جهاد الإمام (ع) في واقعة نهروان بدايةً من البيت التالي:

وَسَرَت بِأرضِ النَّهرَوا
نِ فَزَعزَعَت رُكنَي قُدُسْ (١٥)

كما نلاحظ ينتقل الشاعر إلى رواية وقعة "النهروان" باستعمال فعل "سرت" المسند إلى الخيل المتقدم، ويبدأ بوصف جهاد الإمام (ع) في مواجهة المارقين معتمداً على صنعة المبالغة لخلق فضاء ملحمي يؤثّر في النفوس. هكذا نحن كمتلقي هذا الخطاب الشعري نشعر بانسجام معنوي مبني على هذا التنظيم المنطقي إذ يسبّب الحدث المتقدّم وقوع الحدث المتأخّر فلا يمكن تقديم حدثٍ على آخر. والنقطة الأخرى القابلة للتحليل هنا، هي أنّ علاقة التتابع لا تنظّم الأحداث في مسار زمني معين فحسب، بل هي تتجلي في الحركة من مكان إلى مكان آخر مع المتلقي؛ فقد بني حبك النص بناءً تدريجياً على علاقة التتابع الزمني

والحركي معاً على هذه الخطّة الأفقية: وقعة الجمل (سنة ٣٦ق) وقعة صفين (سنة ٣٧ق) وقعة النهروان (سنة ٣٨ق)

أمّا بالنسبة إلى دور علاقة التتابع في انسجام كلية القصيدة السينية أي ترابط وحداتها النصية الكبرى، فقد جعل الشاعر المقدمة الخمرية في وصف تجربته الشعورية والإخبار بنشر المعرفة الإلهية، نقطة الصفر الزمنية التي تؤثّر في تنظيم الوحدات الأخرى، وقد اعتمد في الوحدة الثانية (ذكر أيام الشباب) على تقنية الاسترجاع الزمني ثمّ قام باتصاله بلحظة الصفر لتحقيق حسن التخلص؛ ثمّ لجأ في الوحدة الثالثة إلى الاسترجاع الزمني مرّة أخرى لإثبات فضائل الإمام (ع)، وفي نهاية القصيدة قام الشاعر بسوق المتلقي إلى الزمن الحاضر من خلال أداء التحية للإمام علي (ع)؛ وبهذا الانتقال يشدّ المرسل طرفي خطابه الشعري (الابتداء والانتهاء) في نقطة زمنية واحدة.

٣-١-٣- علاقة قياس التمثيل

إنّ الاستقراء التمثيلي أو الاستقراء بالمماثلة فرع من ساحة الاستدلال المنطقي الذي يرتبط بطريقة التفكير معتمداً على ميدان الخصائص المشتركة بين مفهومين أو قضيتين. إنّ التمثيل في رأي أغلب البلاغيين يستخدم بمعنى التشبيه أمّا بعض العلماء كعبد القاهر الجرجاني وقد فرّقوا بينهما بأنّ التشبيه أعمّ من التمثيل، فكلّ تمثيل تشبيه وليس كلّ تشبيه تمثيلاً؛ هكذا بإمكاننا تصنيف وظيفة التشبيه والاستعارة في مجالين، الأوّل: وهو دورهما الوظيفي الغالب والمألوف خاصّةً في ساحة الخطاب الشعري- هو زيادة الوضوح في معنى النصّ الأدبي بجانب إضفاء الجمالية عليه وتقريب الأفكار والعواطف من المتلقي؛ والثاني: وهو دورهما الأخصّ في التعريف المذكور- تأدية الدور تمثيلي

أو الوظيفة التعليمية بغية فهم النصّ حيث يلجأ إليهما المرسل لتقريب مفهومٍ يحتاج إلى التأكيد والإثبات، من ذهن المتلقي بضرب الأمثال أو التشبيهات المقبولة ليقود المتلقي نحو الفهم خلال عملية القياس بين القضيتين؛ وفي كلا المجالين يبحث المرسل عن خاصية التأثير. هكذا يعدّ التمثيل نوعاً من القياس المنطقي المؤلف من القضايا التي يجمع بينها عنصر المشابهة. إنّ التمثيل فنّ رفيع المكانة في البلاغة العربية ولما فيه من صبغة حجاجية (ضعيفة) مبنية على القياس (الحقيقي أو المجازي) بجانب الاعتماد على العواطف الرقيقة، يعدّ خير وسيلة للإقناع والتأثير التي تعطي النصّ مقبولية.

شغلت الاستعارة حيزاً كبيراً من العلاقات الدلالية في القصيدة الرابعة لطبيعتها الرمزية خاصّة في المقدمة الخمرية حيث جعل الشاعر الراح، والحبيس، والصّهباء استعارات للمعرفة الإلهية. إنّ هذا الأسلوب الاستعاري بما يخلق من جو قياسي بين المفاهيم الحقيقية والمجازية، يعدّ المائز الأساسي بين هذا النص والنصوص الأخرى من مجموعة العلويات؛ هكذا فقد احتلّت الاستعارات الخمرية ٦٠٪ من مجال قياس الاستعاري (الذي يبلغ عدد استعماله خمسة مواقع) في هذه القصيدة؛ كما نلاحظ البيت التالي نموذجاً:

فُكَّ الحَبِيسُ فَعَفِّرُوا
فِي التُّرْبِ تَعفِيرَ الحُبُسْ (١٦)

ربط الشاعر بين الحبيس بمعنى الخمرة وحادثة كسر طين دنّها وانتشارها، واستعار "الحبيس" لمفهوم المعرفة الإلهية بقرينة تعفير النصرانيين للخمرة المقدّسة، وبهذه الحادثة يصف لنا موقف الشاعر حين الكشف عن المعرفة الإلهية واشتمالها على وجوده لأنّ الخمرة هي «غلبات العشق

مع أعمال تستوجب الملامة، وهذه صفة أهل الكمال؛ كما هي الوجود المطلق»[١٧]. قاس الشاعر على وجه التعريض، بين غلبة السرور من الحبّ الإلهي على ضمير السالك وهو «اشتمال الحب وجود الوامق وجميع صفاته الظاهرية والباطنية»[١٨]، وبين اشتمال السرور والنشوان الناتج عن الخمرة على وجود الإنسان وهذا التمثيل العرفاني المعهود الذي يبيّن كمال السالك، بُني على نقطة حسية مشتركة بين المفهومين يجدها المتلقي حسب الانتقال المنطقي من القرائن والوسائط الدلالية إلى المعنى المراد.

٣-١- فاعلية العلاقات التفسيرية في حبك السينية

إنّ خصيصة "التفسير" في ساحة علم اللغة النصي تطلق على علاقات دلالية رأسية تؤدّي إلى الامتداد النصي من خلال عملية الإبانة والإيضاح، وتندرج تحتها عدّة علاقات دلالية بوظائف متقاربة؛ منها علاقة الإيضاح بعد الإبهام التي تشغل حيّزاً كبيراً من نصّ القصيدة السينية وفق اقتضاء سياقها المدحي؛ فقد أدّت هذه العلاقة وظيفتها حسب طبيعتها التفسيرية والإيضاحية في هذه النصوص، خلال المحورين الأصليين: محور علاقة الإجمال والتفصيل وهي «علاقة تتجلي في فن التفسير لأنّه يشرح ما ابتدئ به مجملاً، فحدّ التفسير هو أن يستوفي الشاعر شرح ما ابتدأ به مجملاً»[١٩]؛ ومحور علاقة العموم والخصوص بدورها المهم في تحقيق الحبك لغرض التبيين والتوضيح.

٣-٢-١- علاقة الإجمال والتفصيل

إنّ هذه العلاقة تحقّق الامتداد الدلالي بإحالة المفاهيم اللاحقة إلى السابقة وبالعكس بغية تكوين نسيج واحد، وهي مبنية على المحورين: محور القضية المجملة ومحور القضايا المفصّلة؛ فالمجملة هي التي «تحمل من

العناصر الرئيسة للقضية الكبرى العامّة للنصّ»[٢٠]؛ والقضية المفصّلة هي التي تبادر بشرح المفهوم المجمل بوصفه الثقل المركزي لما تحتوي من الملامح الدالّة على المفهوم المجمل، فهي بهذه الأوصاف ذات سمة مرجعية.

أمّا بالنسبة إلى استعمال علاقة الإجمال والتفصيل في إنتاج القصيدة، الذي يبلغ عدده ثمانية مواضع في وحداتها النصية الصغرى، فإنّه يرجع إلى طبيعتها المدحية التي تقتضي انتقاء هذه العلاقة في اتصال المفاهيم الوصفية. بني نسيج هذه القصيدة على مقاطع تميّزها عن القصائد الأخرى في مجموعة العلويات، بما تحتوي من المضامين الخمرية والتشبيب وكذلك من وصف حروب جاهد فيها الإمام علي (ع) بعد خلافته؛ هكذا فمن السهل إدراك سبب قلّة استعمال علاقة الإجمال والتفصيل في مقدّمة القصيدة (يبلغ عدد تواتره موضعًا واحدًا) لما تكمن في طياتها من الرموز الصوفية والمفاهيم الموجزة. وبالنسبة للوحدة الثانية (التشبيب) اعتمد المرسل على هذه العلاقة بذكر التداعيات المعنوية لإحكام سلّم النص الدلالية ونموه التدريجي نحو الغرض الأساس.

احتلّ وصف أبعاد شخصية الإمام (ع) معظم مساحة علاقة الإجمال والتفصيل (٥, ٦٢٪ منها) في الوحدة الثالثة بوصفها المقطع الرئيس؛ ولكنّ المفاهيم المصوّرة لوحة جهاد الإمام (ع) وبطولته تعدّ ممّا يرفع من شأن هذه العلاقة على وجه خاص لتشكيل نسيج ملحمي مؤثّر. هكذا ينبغي الإشارة إلى فاعلية هذه العلاقة في تشكيل تلك اللوحة خلال تفصيل أحوال معاوية بن أبي سفيان في الأبيات التالية:

وَثَنَت أعِنَّتَها إلَى
حَربِ ابنِ حَربٍ فَارتَكَسْ
رَفَعَ المَصاحِفَ يَستَجِير

رُ مِنَ الحِمامِ وَيَبتَئِسْ
خافَ الحُسامَ العَندَمِيـ
ـيِ وَحاذَرَ الرُّمحَ الوَرَسْ
فَانصاعَ ذا عَينٍ مُسَهـ
ـهَدَةٍ وَقَلبٍ مُختَلَسْ[٢١]

قد جعل الشاعر حرب ابن حرب (معاوية بن أبي سفيان) مركزاً مجملاً تفصّل أحوالَه الأفعال اللاحقة خلال وصف معركة صفين حين هاجمه جيش الإمام (ع)؛ فنرى أنّ عبارات «رفع المصاحف»، و«يستجير ويبتئس»، و«خاف الحسام»، و«حاذر الرمح»، وكذلك «انصاع» جميعها استخدمت مكملاً أحوال معاوية في مسار استسلامه المتدرّج وإيحاء خوفه الشديد. لجأ ابن أبي الحديد في هذا الأسلوب التفصيلي إلى اختيار أفعال من حقل دلالي متقارب لتصوير هذا التدرّج المعنوي، إذ يشترط في هذا النوع من التفصيل أن يرتبط المجمل بـ«الأفعال التي تفصّله وتحدّد مغزاه؛ والأفعال في هذا المقطع تتبادل التأثير»[٢٢]. ثمّ نواجه تفصيلاً آخر ضمن هذه التفاصيل في وصف انصياع معاوية وهو متجلٍ في أوصاف «عين مسهّدة» و«قلب مختلس»؛ هكذا نلاحظ في هذه الأبيات تفصيلاً متداخلاً يتناسل خلاله موضوعان يدوران حول مركز واحد وهذا المركز أحوال معاوية بن أبي سفيان في مواجهة استعداد الإمام عليه السلام للجهاد.

أمّا بالنسبة إلى الترابط المفهومي التفصيلي بين الوحدات النصية الكبرى في السينية، يبدو أنّ المرسل لجأ إلى هذه العلاقة لاتصال بين الوحدتين الأولى والثانية خلال المقاطع التالية:

فَإذا سَكَرتَ فَغَنِّ لِي
ذَهَبَ الشَّبابُ فَما تُحَسْ
قَصُرَت وَقَد رَكَضَ الصِّبا
حُ بِجُنحِها رَكضَ الفَرَسْ
وَكَذاكَ أَيّامُ المَسَـ
ـرَةِ رَجعُ طَرفٍ أو نَفَسْ[٢٣]

إنّ لجوء ابن أبي الحديد إلى هذه العلاقة للربط بين الوحدات الكبرى، يؤدّي إلى تقوية حبك القصيدة على مستوى أوسع باتساع المسافة الفاصلة بين المجمل والمفصّل؛ فقد خصّ المرسل قوله بوقت السكر لأنّ خلسة الشباب هي الغفلة الحقيقية ومرحلة عدم قبول الوعظ. جعل الشاعر مفهوم ذهاب أيام الشباب ومرورها عنصراً مجملاً يحتاج إلى التفصيل فأخذ يفصّل كيفيته خلال الوحدة اللاحقة بذكر العبارات المتعلّقة بهذا الثقل المعنوي كإسناد فعل «قصرت» إلى تلك الخلسة ومثل الإسناد المجازي المتبلور في جملة «قد ركض الصباح بجنحها ركض الفرس» الذي يوحي بسرعة مرور الأيّام خلال تصوير لوحة شبّه فيها الشاعر الشيخوخة بالصباح وأيّام الشباب بالجنح، وبهذا الإسناد المجازي يصنع تفصيلاً يلائم طبيعة الوصف؛ والتفصيل الأخير هو عبارة «رجع طرف أو نفس» التي استعملها الشاعر لتصوير نفس المفهوم لأنّ رجع الطرف والنَفَس رمزان لسرعة المضي. من الواضح أنّ كلّ هذه التفاصيل- حقيقياً أو مجازياً- تنتمي إلى حقل دلالي واحد غير مستقلّ عن دلالة سرعة الذهاب.

٣-٢-٢- علاقة العموم والخصوص

تتبلور فاعلية هذه العلاقة في انسجام النص، من خلال مسارٍ خطّي يبدأ بذكر المرسل مفهوماً عامّاً تندرج تحته أصناف متعدّدة ومراده بهذا الاختيار إعطاء المتلقي فهماً كلياً يجعله في حالة التهيّؤ لأخذ مصاديقه الجزئية، وينتقل إلى اختيار المرسل التخصيص بتسليط الضوء على صنف واحد من المفهوم المركزي وتحديد دائرة دلالاته معتمداً على التداعيات المعنوية. تحقّق علاقة العموم والخصوص انسجام النص خلال الربط بين وحداته الكبرى لأنّ الفواصل السياقية بين العناصر العامّة

وتخصيصها، تشدّ أطراف النصّ وتجعل منه نسيجاً قابلاً للفهم والاستنتاج.

لاحظنا في كثير من الدراسات النصيّة التي عالجت علاقة العموم والخصوص، أنّ الباحثين اعتبروا عنوان النصّ عموماً والنص تخصيصاً له، فإنّ العنوان والنصّ في رأيهم أوّل مصداقٍ لعلاقة العموم والخصوص؛ كما أكّد عليه محمّد خطابي بقوله: «يمكن أن نعتبر أنّ عنوان القصيدة ورد بصيغة العموم بينما بقية النصّ جاءت تخصيصاً له، وأنّ بعض عناوين المقاطع وردت عامّة خصّصتها مقاطعها»[٢٤].

أمّا بالنسبة إلى هذه القصيدة المعنونة بـ«في وقعة الجمل»، فقد ظلّل العنوان على تكوين الوحدة الثالثة من هذه القصيدة بوصفها المقطع الرئيس في وصف الإمام (ع) ومدحه، فيؤثّر على تنظيم الوحدات الأخرى في مسار هذه الدلالة الجامعة واستيعاب الفكرة الأساسية. هكذا فإنّ كل وحدات القصيدة المستقلّة بموضوعها المحدّد (الخمرة- التشبيب- المدح) تنتظم في ظلال هذه العلاقة لتكوين القصيدة النهائي وامتدادها النصّي، على النحو التالي:

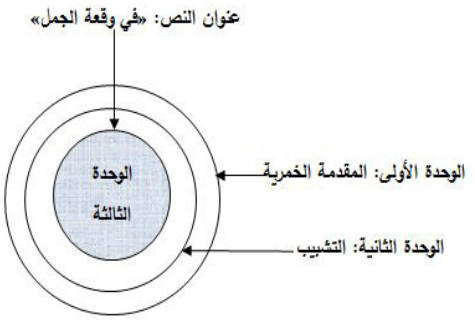

كما نلاحظ تدور الوحدتين الأولى والثانية حول محور الوحدة الثالثة بوصفها الثقل المركزي للقصيدة وهي تتضمن عنوان القصيدة وتعدّ تخصيصاً له. أمّا بالنسبة إلى أثر علاقة العموم والخصوص الوظيفي في اتصال الوحدات النصية الكبرى للسينية وتقوية حبكها ينبغي الإشارة إلى المقطعين التاليين بوصفهما أهمّ نماذج توظيف هذه العلاقة، حيث لجأ ابن أبي الحديد إلى تخصيص حقيقة معرفته بعد غفلته وقام باتصال المقدمة

الخمرية بالمديح:

فَإذا سَكَرتَ فَغَنِّ لِي
ذَهَبَ الشَّبابُ فَما تُحَسْ

***

فَافرِغ إلَى مَدحِ الوَصِيـ
ـيِ فَفِيهِ تَطهِيرُ النَّجَسْ[٢٥]

استعمل الشاعر في المقدمة الخمرية رموزاً عرفانية مصطبغة بلون الإيجاز، ليكشف الستار عن حقيقة المعرفة الإلهية المتجلّية في ضميره فقد عبّر عن هذه المعرفة بلفظة "راح" الرمزية للدلالة على غلبة الحب على نفسه وتجلّي الأسرار الإلهية فيها، فهي تعدّ مفهوماً عامّاً يتضمّن في طياته جوانب عديدة ومعان عالية. قام الشاعر في الوحدة الثالثة بتخصيص هذا المفهوم ومن خلال هذه العلاقة عمل على الربط بين المقدمة الرمزية ومقطع مدح الوصي (ع)، لأنّ المدح ليس سوى إبراز الحبّ والإعجاب بالممدوح وهو نابع عن ينبوع المعرفة؛ فإنّ معرفة الإمام (ع) من خلال ذكر فضائله، يعدّ بعداً واحداً من آفاق المعرفة الإلهية أو تخصيصاً لها؛ هكذا تؤدّي علاقة العموم والخصوص إلى الكشف عن فاعلية الرؤية عند الشاعر.

٣-٢- فاعلية العلاقات التقابلية في حبك السينية

رفعت اللسانيات النصّية من شأن ظاهرة التضاد وجعلتها في مسار دلالي جديد ينتهي إلى التوليد والتناسل في النصّ. يعالج التضاد، بوصفه علاقة دلالية مؤثرة في انسجام النص الدلالي، على مستوى الوحدتين النصيتين الكبريين في النصّ. لا منازع في أنّ هذا النوع من التضاد يتجلي في نطاق المقابلة وهي أعمّ من الطباق يكمن الفرق بينهما في «الأوّل أنّ الطباق لا يكون إلّا بين الضدّين غالباً والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالباً. والثاني: لا يكون الطباق إلّا بالأضداد والمقابلة بالأضداد وغيرها»[٢٦] فإنّ تعدّد الأضداد بمعنى تعدّد نقاط الاتصال في النصّ.

يختلف مواقع استعمال علاقة التقابل حسب سياق النص؛ هكذا نلاحظ أنّ ابن أبي الحديد قد اهتمّ باختيار هذه العلاقة لأهداف خطابية معيّنة وفق السياق المدحي لقصيدته، وهي إقامة المقارنة بين المواقف وخلق فضاء قياسي بين الصور الشعرية لترجيح المتلقي أحدهما على الآخر وتحقيق الاستمرار الدلالي بها في النصّ؛ فإنّ انتقاء هذه التقابلات الثنائية في سياق الخطاب الشعري المدحي- الصوفي ليس عن عدم الوعي بل إنّما هو لهدف دلالي معين حتّى يمكن عدّها أصلاً قوياً في استكناه الفكرة الأساسية لهذه القصيدة. تجلّت علاقة التقابل بين البنى الكبرى للقصيدة السينية خلال طرح ثنائية الغفلة والمعرفة، وثنائية النجاسة (المعاصي) والطهارة (ذكر الإمام عليه السلام) في الوحدة الثانية والثالثة؛ حيث انتهت خلسة أيّام الصبا واغتراف اللذات فيها إلى تلوّث نفس الشاعر في حين أنّ النشوة بالخمرة الإلهية تعدّ غاية الصحوة إذ أنّ طهارة الإمام (ع) وقداسة وجوده يطهّر القلوب من دنس المعاصي؛ فإنّ هذا الطابع الوجداني الجديد ممّا يميّز نص هذه القصيدة من القصائد الأخرى في مجموعة العلويات، ويسوق الأذهان شطر أرجحية الفضاء الدلالي الصوفي بحملها على اليقين بعدم جدوى اللذّات الدنيوية.

أمّا بالنسبة إلى فاعلية دور العلاقة التقابلية في تقوية درجة انسجام النص، فهي قد تجلّت خلال مشهدٍ رسمه المرسل في مقابلة المشهد السابق وهو يعدّ المقطع الرئيس المتضمّن الفكرة الأساسية للنصّ:

فَافرِغ إلَى مَدحِ الوَصِيِ
يِ فَفِيهِ تَطهِيرُ النَّجَس
الزَّاهِدُ الوَرِعُ التَّقِيِ
يُ العالِمُ الحِبرُ النَّدَس
صَلَّى عَلَيهِ اللهُ ما
غارَ الحَجِيجُ وَما جَلَس [٢٧]

غطى حبّ الدنيا والاهتمام

باللذات قلبَ الشاعر الشاب فإذا استيقظ من نشوة أيّام الشباب- وقد أسلفنا القول في دلالة الشباب وهي مرحلة عدم المعرفة وعدم إدراك فلسفة الحياة- وجد مدح الإمام علي (ع) وذكر فضائله المتعالية، الطريق الوحيد لطهارة ضميره من ثقل المعاصي وظلمة الآثام لأنّه نابع من معرفة الله (عزّ وجلّ). هكذا فقد قام الشاعر بتحرير هذا المضمون أي الارتقاء من الحياة الماجنة إلى الحياة الزاهدة المزيجة بالمعرفة، معتمداً على أسلوب التعاقب التقابلي بين صور النصّ وقد حقن التضاد في صلب هذه اللوحات بجعل مفاهيم الزهد، والورع، والتقوى في مقابلة اللذات وقضاء المآرب؛ كما جعل مشهد علم الإمام (ع) وفطنه في مقابلة مشهد الخلس والسكر في سياق التشبيب. إنّ المرسل في المقطع السابق صوّر لنا مفهوم الشباب بتقديم لوحة متوحشة تحتوي على الافتراس وصرم الأمراس وجعل هذه اللوحة في مقابلة لوحة المديح في المقطع اللاحق المبنية على خصال الإمام (ع) التي تلائم فطرة البشر.

٤. الخاتمة

حصلنا خلال التطواف اللساني الذي قمنا به في القصيدة السينية من القصائد السبع العلويات لابن أبي الحديد من منظار الانسجام العلاقي، على عدة نتائج؛ منها:

- بنيت القصيدة السينية على نسيج محكم متشابك المضامين يلقي المدح ظلاله على ساحتها. تعدّ هذه القصيدة خير مجال لتجلي العلاقات الدلالية المنطقية، والتفسيرية، والتقابلية بمختلف فروعها بوصفها أبرز العناصر الإنسجامية التي تسهم في إيصال الدلالة الجامعة على مستوى الوحدات النصية الصغرى والكبرى.

- في مجال العلاقات المنطقية قد اعتمد المرسل على أنواعها الثلاثة للربط بين المفاهيم على مستوى الوحدات النصية الصغرى بتنظيم القضايا على

وجه منطقي، والكبرى بخلق حسن التخلص لاتصال التشبيب بالمديح، وقد استعمل المرسل أكثر العلاقات السببية مصرّحةً بالفاء السببية العاطفة لتسهيل فهم القضايا وإقناع المتلقي.

أمّا علاقة التتابع الزمني فهي تسهم إسهاماً بارزاً في تقوية انسجام القصيدة على مستوى الوحدات الصغرى باختيار الشاعر لحظة الصفر ولجوئه إلى المفارقات الزمنية المتجلية في الاسترجاع التاريخي بحيث لا يمكن تقديم حدثٍ على آخر؛ وعلى مستوى الوحدات الكبرى من خلال اتصال تلك الاسترجاعات بلحظة الصفر لحسن قيادة الذهن نحو الاستنتاج المنطقي.

- تجلّت معظم العلاقات التفسيرية في نطاق الوحدة الثالثة على وفق طبيعتها الوصفية حيث يمكن اعتبارها من المقومات الأساسية التي ترتكز عليها بنية النص الدلالية. رصدنا كثرة اهتمام الشاعر بعلاقة الإجمال والتفصيل في مجال مدح الإمام (ع) خاصة في نطاق المقابلة بين خوف معاوية وفروسيته؛ بجانب أثر هذه العلاقة على مستوى الوحدات النصية الكبرى في اتصال الوحدة الثانية بالثالثة. كذلك رصدنا خضوع النصّ لعلاقة العموم والخصوص التي تجّلت خلال سيطرة العنوان على تكوين الوحدة الثالثة من هذه القصيدة بوصفها المقطع الرئيس، وأثره في تنظيم الوحدات الأخرى في مسار الدلالة الجامعة.

- تؤدّي علاقة التقابل أثراً ملحوظاً في اتصال الوحدات الكبرى للقصيدة وتآلفها الدلالي بخلق ثنائية المعاصي والطهارة. إنّ اللجوء إلى التقابل رغم اتصال الأجزاء المتباعدة للنصّ يعدّ من أبرز مثيرات النفوس بتحقيق فاعلية الصور وهو ذو قدرة فائقة في تجسيد آراء المرسل وبسط تجربته الشعورية بخلق التوازي النصي.

الهوامش:

١- عكاشة، ٢٠١٠م: ١١

٢- الفقي، ٢٠٠٠م، ج١: ٩٦

٣- ابن كثير، لاتا: ١٣/ ٢٣٣؛ ابن أبي الحديد، ١٩٥٩م: ١/ ١٣

٤- ابن منظور، ١٩٩٩م: مادة «س ج م»

٥- السيوطي، ١٩٧٤م، ج٣: ٢٩٦

٦- خطابي،١٩٩١م: ٦

٧- مفتاح، ١٩٩٠م: ١٢٩

٨- الصالح، ١٩٧٢م: ١١٤-١١٥

٩- المصدر نفسه: ١١٦-١١٧

١٠- المصدر السابق: ١١٨

١١- مرزوق، ٢٠١٩م: ١٦٨

١٢- المصدر نفسه: ١١٦-١١٧

١٣- بوعزة، ٢٠١٠م: ٨٨

١٤- الصالح، ١٩٧٢م: ١١٧-١١٨

١٥- المصدر نفسه: ١١٩

١٦- المصدر السابق: ١١٤

١٧- الفتي تبريزي، ١٩٨٣م: ٥٩-٦٠

١٨- المصدر نفسه: ٦٢

١٩- عبدالمجيد، ١٩٩٨م: ١٥٧

٢٠- فرج، ٢٠٠٧م: ١٤٦

٢١- المصدر نفسه: ١١٨

٢٢- خطابي، ١٩٩١م: ٢٦٩

٢٣- الصالح، ١٩٧٢م: ١١٦

٢٤- خطابي، ١٩٩١م: ٢٧٢

٢٥- الصالح، ١٩٧٢م: ١١٥-١١٧

٢٦- الزركشي، ١٣٩١هـ: ٣/ ٤٥٨

٢٧- المصدر نفسه: ١١٧-١١٩

المصادر والمراجع:

١- ابن أبي الحديد، عبد الحميد. (١٩٥٩م). شرح نهج البلاغة. تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم. بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

٢- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (لاتا). البداية والنهاية. تحقيق: علي شيري. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٣- ابن منظور، محمّد بن مكرم. (١٩٩٩م). لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٤- بوعزة، محمد. (٢٠١٠م). تحليل النصّ السردي تقنيات ومفاهيم. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

٥- خطابي، محمّد. (١٩٩١م). لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب. بيروت: المركز الثقافي العربي.

٦- الزركشي، محمد. (١٣٩١هـ). البرهان في علوم القرآن. تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار المعرفة.

٧- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (١٩٧٤م). الإتقان في علوم القرآن. المحقّق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.

٨- الصالح، صالح علي. (١٩٧٢م). الروضة المختارة؛ القصائد الهاشميات لكميت بن زيد الأسدي والقصائد العلويات لابن أبي الحديد المعتزلي. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٩- ألفتي تبريزي، حسين. (١٩٨٣م). رشف الألحاظ في كشف الألفاظ (معجم المصطلحات الاستعارية الصوفية). تصحيح وتوضيح: نجيب مايل هروي. طهران: مولى للطباعة والنشر.

١٠- عبد المجيد، جميل. (١٩٩٨م). البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.

١١- عكاشة، محمود. (٢٠١٠م). الربط في اللفظ والمعنى؛ تأصيل وتطبيق في ضوء علم اللغة النصي.

القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.

١٢- فرج، حسام أحمد. (٢٠٠٧م). نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النصّ النثري. القاهرة: مكتبة الآداب.

١٣- الفقي، صبحي إبراهيم. (٢٠٠٠م). علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية علي سور مكية). القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.

١٤- مرزوق، أحمد سمير علي. (٢٠١٩م). الحبك في شعر ابن مجبر الأندلسى. مجلة هرمس، الدوريات المصرية، العدد الثاني، المجلد الثامن، ص ١٤٧-١٨٨

١٥- مفتاح، محمّد. (١٩٩٠م). دينامية النص (تنظير وإنجاز). ط٢. بيروت: المركز الثقافي العربي.